محمد علي آذرشب*

يقظة الشعور لدى الشعراء الخالدين

الشيرازيان والشابي نموذجًا

(ص ١٦٣-١٩٤)

ملخّص

الشعور باختصار هو القوّة التي تحرّر الإنسان من الانشداد بما تنشَدّ إليه البهائم، وترفعه ليطوي مراحل كماله.

وكل الخالدين في التاريخ من المصلحين وأصحاب الكلمة والفنانين والشعراء، إنّما خلدوا لأنهم ضربوا على وتر إيقاظ الشعور.

وكلّما كان الشعور لدى هؤلاء الخالدين أقوى كان تأثيرهم في إيقاظ المتلقّين أكثر وكان خلودهم أبقى وأدوم.

والشعراء من أقدر الناس على إيقاظ الشعور، لأنهم يستخدمون «الكلمة» و«الموسيقى». لكنّ العظام منهم يفوقون الباقين بقوّة تأثيرهم على الإيقاظ، لما في صدورهم من لهيب المشاعر التي تتحول إلى كلمات جزلة وأنغام عذبة تدخل القلوب وتثير العواطف والشعور.

قوّة الشعر إذن ليست في قديمه أو حديثه وليست في عربيّه أو فارسيّه، إنما في حرارة لهيبة. وهذا المقال يتناول من دائرة شعراء الفارسية القدماء حافظ وسعدي، ومن دائرة شعراء العربية المعاصرين أبا القاسم الشابي. ورغم ما بين الشيرازيين والشابي من فواصل الزمان والمكان واللغة فهم ينطقون جميعًا بلغة واحدة.. لغة يقظة الشعور.

---

* - أستاذ في جامعة طهران.

معنى يقظة الشعور:

يقظة الشعور تعني تحرّر الإنسان من ذاتيته وأنانيته لينطلق في حركة تكامليّة يتحدّى فيها العوائق والعقبات ليسجّل الانتصارات في حقل خلق مجتمع أفضل.

كل الأديان دعت إلى تحقيق هذا الهدف الكبير.. لأن فيه إحياءاً للإنسان، وهل الدين إلاّ الإحياء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ .

وكان هذا أيضًا هدف المصلحين والإحيائيين على مرّ التاريخ.

وإذا أردنا بيان هذه الحقيقة بلغة كتاب الله العزيز فإن الإنسان بالتعبير القرآني مخلوق من «**طين**» يرمز إلى الجانب الهابط من الموجود البشري ومن **نفخة روح ربّ العالمين** التي ترمز إلى الجانب المتسامي من الإنسان وإلى قدرة حركته التكاملية نحو أبعاد لا نهائية.

وفي الإنسان نوازع تشدّه إلى الطين ومهمة الرسالة السماوية أن تنتزع الإنسان من انشدادات الطين لتحلّق به إلى آفاق رحبة يرى فيها حقيقة إنسانيته ويكتسب فيها معرفة بحقيقة الحياة وحقيقة الجمال والكمال.

إيقاظ الشعور بهذا المفهوم يعني إذكاء الجانب المتسامي من الإنسان وتحريكه نحو الآفاق الرحبة من المعرفة والكمال والجمال.

يقظة الشعور عند سعدي

سعدي الشيرازي ولد سنة ٦٠٦ هجرية بمدينة شيراز، وعاش فترة انحطاط الحالة الشعورية لدى الأمة الإسلامية بسبب ما دبّ فيها من ضعف أدّى إلى اجتياح المغول وسقوط الخلافة العبّاسيّة وما يتبع ذلك عادة من هزيمة نفسية وتراجع في المعنويات وارتخاء في العزائم والهمم.

فنهض هذا الرجل ليعزف على أوتار استنهاض شعور الأمة، وسلك المحاور التالية:

١ـ محور الانشداد بالإنسانية جمعاء.

خطاب سعدي في هذا المحور يسعى إلى كسر كل الأطر التي تحدّ الإنسان من الانفتاح على أخيه الإنسان، انطلاقًا من مفهوم «**التعارف**» الذي دعا إليه القرآن الكريم. ومن مفهوم وحدة المجتمع الإنساني. يقول: في أبيات تتصدّر اليوم واجهة منظمة الأمم المتحدة:

بنی آدم اعضـــــای یکدیگــرند
که در آفرینش زیــك گوهــرنـد
چــو عضوی بــدرد آورد روزگار
دگــر عضـوهـــا را نمـــاند قرار
تــو گر محنت دیگران بی غمـــی
نشاید کـــه نامت نهند آدمـــــی[1]

أي:«بنـــــــو آدم جـــــــسدٌ واحـــــــدُ
إلى عنـــــــصر واحـــــــدٍ عائـــــــدُ
إذا مـــــسّ عـــــضوًا ألـــــيم الـــــسقام
فـــــــسائر أعـــــــضائه لا تنـــــــام
إذا أنـــــــت للنـــــــاس لم تـــــــألم
فـــكيـــــــف تســمّـيت بالآدمـــــي»؟!

ويرفض سعدي أن يعيش الإنسان المؤمن في عزلة عن الناس وأن يغرق في عبادته دون تقديم خدمة لبني البشر يقول:

صـــاحب دلی بمدرسه آمد زخانقاه
بشکست عهد صحبت أهـــل طریق را
گفتم میان عالم و عابد چه فرق بود
تا اختیار کــردی از آن ایــن فریق را

گفت آن گليم خويش بدر ميبرد زموج
وين سعى مى كند كه بگيرد غريــق را [٢]

أي: «عارف جاء من الخانقاه إلى المدرسة/ وقطع عهد الصحبة مع أهـل الطريقـة / قلت: ماالفرق بين العالم والعابد /حتى جعلك تختـار هـذا الطريـق؟ / قـال: ذاك ينقـذ سجادته من الموج وهـذا يسعـى للأخـــذ بيد الغريـق».

٢- محور الارتباط بالأمة الإسلاميّة الكبرى

وهو هدف عظيم يعلو على الأطر الضيقة الإقليمية والقومية ويخلق في الإنسان روح الانتماء إلى الأمة الإسلامية جمعاء.

ولتحقيقه سلك **نهج الامتزاج اللغوي بين العربية والفارسية، وطاف في العالم العـربي والإسلامي ليفتح** أمام الإيرانيين آفاقًا رحبة من الحياة الإسلامية في البلدان الأخرى.

بالنسبة إلى الامتزاج اللغـوي فـإن تـراث سـعدي مـزج في مؤلفاتـه بـين العربيـة والفارسية بحيث لا يمكن أن يطالعها أحد إلا أن يكون ملمًّا باللغتين معًا. ولم يكن ذلـك مصادفة، بل تعمّد إلى ذلك ـ فيما أعتقد ـ ليثبت أن الامتزاج هذا يبلغ باللغة إلى ذروة الكمال.

كثرة التضمينات القرآنية وكثرة العبارات والأبيات العربية التي تتخلّل نثـره وتـُلمّع شعره، والقصائد العربية التي تحتويها كلياته تثبت أنه أراد التوفيـق بـين اللغـتين العربيـة والفارسية ليخرج بنصوص تجمع بين الاثنين في إطار جميل خلاّب بعيد عن أي تكلّف.

في كتابه *گلستان* على سبيل المثال تـرى في الـصفحة الأولى نثـرًا مليئًـا بـالمفردات العربية: مِنّة.. عزّ وجلّ... طاعة.. موجب.. قرب.. شكر.. مزيد.. نعمة.. نـَفَس.. ممـدّ.. حياة.. مفرّح.. ذات.. واجب.. تقصير.. عذر.. رحمة.. حـساب.. نـاموس.. فـاحش... خطأ.. كريم.. خزانة.. غيب..وظيفة.. محروم.. نَظَـر.. فـرّاش.. فـرش.. دايـة.. بنـات.. نبات... خلعة.. قباء.. ورق.. أطفال.. قدوم.. موسم.. ربيع..و...

وترى آية هي قوله تعالى: ﴿اعملوا آل داود شكرًا وقليل مـن عبـادي الـشكور﴾..

وهكذا تستمر الصفحات على هذا المنوال تتخللها أبيات بالعربية مشفوعة بأبيات في الفارسية.

والعربية في كليات سعدي نراها:

ـ في المفردات العربية الكثيرة في نثره.

ـ وفي أبياته العربية المتناثرة خلال نثره.

ـ وفي قصائده العربية التي أفرد لها المحققون قسمًا خاصًا.

تبدأ أولها بقوله:

الحمد لله رب العالميـــن علـــى

ما درّ من نعمة عزّ اسمه وعلا[٣]

وهي في ذكر الله ونِعَمه.

والثانية في رثاء بغداد والخليفة المعتصم بالله العبّاسي بعد هجوم المغول ومطلعها:

حبستُ بجفنيَّ المدامـــع لا تجـــري

فلما طغى الماء استطال على السكر[٤]

وتزيد على تسعين بيتًا.

والثالثة في مدح نور الدين بن صياد ومطلعها:

مادام ينسرح الغزلان في الوادي

احذر يفوتك صيد يا ابن صيّاد[٥]

عدد هذه القصائد العربية يربو على العشرين، وأكثرها في الغزل كما ذكرنا، ومن غزله العربي قوله:

يـــا نـــديمي قـــم تنبّـــه واســـقني واســـقِ النـــدامى

اســـقياني وهـــدير الرعـــد قـــد أبكـــى الغمامـــا

وشـــفا الأزهـــار تفتـــرّ مـــن الـــضحك ابتـــساما

قـــل لمـــن عيّـــر أهـــل الحـــبّ بالجهـــل ولامـــا

لا عرفت الحبّ هيهات ولا ذقت الغراما[٦]

ونرى العربية في ملمّعاته نظير قوله:

وقتها يكدم برآسودي تنم[٧]
قال مولائي لطرفي لا تَنَمْ
اسقياني ودعاني أفتضحْ
عشق ومستوري نيامیزد بهم[٨]
ما بمسكيني سلاح انداختيم[٩]
لا تحلّوا قتلَ من ألقى السّلَم
قد ملكت القلب ملكًا دائمًا
خواهي اكنون عدل كن خواهي ستم[١٠]

وليست مظاهر الوحدة الحضارية عند سعدي متجلية في الامتزاج اللغوي بين العربية والفارسية فحسب، بل أيضًا فيما يعرضه من قصص حقيقية أو رمزية دارت في بلاد عربية أو غير عربية أحيانًا من العالم الإسلامي.

فتجواله في العراق والشام ومصر والجزيرة العربية أمدّه بخصب حضاري في شعره ونثره. في أحاديثه عن الشام مثلاً يتكرر ذكر دمشق والقدس وحلب وطرابلس، ويذكر عنها قصصًا فيها عبرة وتذكير.

من ذلك قصة أسْرِهِ في الشام يرويها على طريقته في السرد. يذكر القصة منثورة ثم يقطّع فقراتها بقطعة شعرية أو بيت ، وفيها من العبر الكبيرة المرتبطة بواقعنا الراهن، يقول[١١]:

«ذات يوم بدت لي ملالة من صحبة إخواني الدمشقيين، فهمت على وجهي في صحراء القدس واستأنست بالحيوانات، إلى أن صرت مرة أسير قيد الفرنج (ويبدو أنه يشير إلى أسره بيد المهاجمين الصليبيين على الأراضي الفلسطينية يومئذ) وسخّروني في عمل الطين مع اليهود في خندق طرابلس، حتى مرّ بي واحد من رؤساء حلب كان لي به

سابق معرفة، وعرفني فقال: أي فلان! ما هذه الحال؟

(قطعة شعرية)

« كنت أفرّ من الناس إلى الجبل والصحراء / لأنه لم يكن لي عن الله انشغال بالغير / فقس في أية حالة أكون حينما / يتحتّم عليّ أن أعمل في حظيرة اللئام».

(بيت شعر)

«لإن يكن الرجل مقيّدًا عند الأصدقاء / خير من أن يكون المرء في البستان مع الغرباء».

* * *

«فأشفق على حالي التعسة، وخلّصني من القيد بعشرة دنانير، وأخذني إلى حلب، وزوّجني ابنته، بصداق قدره مائة دينار، بعد أيام، أخَذَت ابنته في المشاكسة والعصيان وطول اللسان، وكانت تنغّص عيشي».

(أبيات).

«المرأة الخبيثة في بيت الرجل الطيب/ جحيمه في هذا العالم أيضًا/ فحذار من قرين السوء حذار، (وقنا ربّنا عذاب النار)».

* * *

«فأطالت مرّة لسان التعنّت وكانت تقول: ألست أنت الذي خلّصك أبي من قيد الفرنج بعشرة دنانير؟ فقلت بلى! أنا ذاك الذي خلصني أبوك من قيد الفرنج بعشرة دنانير وجعلني أسيرًا في يدك بمائة دينار».

(أبيات)

«سمعت أن رجلاً كبيرًا خلّص خروفًا من فم ذئب/ وفي وقت الليل أمرّ السكين على حلقه/ فأتته روح الخروف قائلة: لقد اختطفتني من براثن الذئب/ فلما نظرتُ، كنت أنت ذئبي في النهاية».

* * *

وفي القصة إضافة إلى السرد الأدبي الممتع:

ـ أن الإنسان إذا ملّ المقام في مكان فعليه أن ينتقل منه، وهي دعوة إلى عدم الخضوع للعادة، وعدم الخضوع للعادة من أهم محاور دعوة العرفاء.

ـ مقارنة بين العيش مع البشر الطبيعيين (وهم في الفارسية: مردم)، والمقصود الدمشقيون، والعيش مع البشر اللئام (نامردم)، وهم الفرنج الغزاة. وتأكيده على أن الإنسان إذا ملّ المقام مع أهله فلابدّ أن يتنقّل بين أهل آخرين من أبناء أمته. لا أن يوقع نفسه في ورطة اللئام من أعداء أمته. فقَيدُ الأصدقاء أفضل من بستان الغرباء.

ـ إشارة إلى إمكان أن يلقى الإنسان العنت من الأقرباء الجهّال المشاكسين، حتى ولو كان ذلك القريب زوجه.

ـ إشارة إلى أن المتظاهرين بالإنقاذ والتحرير قد يكونون هم أنفسهم الجزّارين.

٣- محور الدعوة إلى العزّة

الذلّ من أهم عوامل خمود الشعور، والعزّة من أهمّ حوافز الإيقاظ.

المجتمع البشري حيّ بعزّته فإذا ذلّ مات.. هذه حقيقة تؤكدها كل الدراسات التاريخية والاجتماعية، وتثبتها حقائق الواقع الراهن، من هنا فإن كلّ الأنبياء والمصلحين دعوا إلى صيانة عزّة الإنسان وكرامته على ظهر الأرض، كي يستشعر الحياة، ويسير على طريق استخلاف الله في الأرض وما يتطلبه هذا الاستخلاف من إبداع وابتكار واستثمار لمواهب الطبيعة وكنوزها.

وسعدي بأسلوبه الأدبي الرائع جَهَد لأن يحافظ على روح العزّة في مجتمعه بعد أن تكالبت عليه أنواع الظروف لإذلاله.

وأهم وَتَر ضرب عليه لصيانة روح العزّة في المجتمع هو إنقاذ الناس من التهافت على الدنيا كتهافت الذباب على قطعة الحلوى. وإيقاظ العقول والقلوب على حقيقة هذه الحياة التي لا تبقى لأحد. وهذا لا يعني أنه دعا إلى ترك الدنيا، بل دعا إلى ممارسة الحياة ممارسة مترفعة عن الدنايا وعن الذاتية والأنانية، وعن الحرص والطمع ، وعن كل

العوامل التي تخلق السلبيات في العلاقات الاجتماعية، وتحول دون تفتح مواهب الإنسان وكفاءاته ودون العطاء الاجتماعي العام. دعا إلى أن لا يتحول الإنسان إلى دودة تعيش في الظلام، لا تعرف إلا ما حولها، ولا تعمل إلا لإشباع نهمها الغريزي.

نراه في حكاياته بكتاب *گلستان* يخاطب النفس الإنسانية بأساليب مختلفة لينتشلها من وهدة الهبوط ويرفعها إلى الارتباط بالكون الفسيح وخالقه.

يقول في الباب السابع: «سمعت أحدًا من الشيوخ المربين كان يقول لمريد: أي بني! لو كان ارتباط ابن آدم بالرازق بقدر ارتباطه بالرزق لارتقى على الملائكة في المقام».

وفي هذا المضمار ينشد أحيانًا بيتًا بالعربية فيقول:

بئس المطاعم حينَ الذلِّ يكسبها

القِـــدر منتصـب والقَدرُ مخفوضُ

وأحيانًا ينشد بيتًا بالفارسية يقول:

هركه نان از عرق خويش خورد

منّـت از حاتـم طائى نبـــرد

أي: «كل من يأكل الخبز من عمله / لا يتحمل المنّة حتى من حاتم الطائي».

وأحيانًا ينشد قطعة شعرية يقول:

«إذا أردت الغنى، لا تطلب غير القناعة / فإنها دولة هنيّـة/ إذا نثـر الغـني الـذهب بحجره / فحذار أن تنظر إلى نواله/ فقد سمعت كثيرًا من الأكـابر (يقولـون) / إن صـبر الفقير خير من بذل الغني».

وفي كتابه *بوستان* خصص بابًا للقناعة يدعو إليه بقوله مثلاً:

ـ «اقنعي أيتها النفس بالقليل / حتى تري السلطان والفقير متساويين».

ـ «وابغ جوفًا طاهرًا أينما تذهب / فإن البطن لن يمـلأه إلا التـراب».

ـ «والنفس الأمارة تـُحيل المرء ذليلاً / فلا تطعها إن كنـت عاقـلاً».

وفي قطعاته الشعرية يكثر من التأكيد على عزّة النفس، وفي إحداها يصوّر أصـدقاءه يقولون له:

«لماذا أنت يا سعدي لا تتحرك للحصول على المال والمتاع؟ / فأنت تتربع على عرش الشعر، فلماذا تعيش كما يعيش المرتاضون؟/ لو مدحت قليلاً فستنال الحظوة/ وصاحب الفن إن كان معدمًا فهو مغبون، ولا يقدر أن يكسب ودّ الإخوان».

ثم يجيبهم: «لا أستطيع أن أرفع حاجتي إلى هذا المالك وذاك الثري/ فهذا من فعل المتكدين/ لو طُلب مني أن آخذ إبرة من اللئام/ لتحولت هذه الإبرة إلى إبر على جلدي مثل القنفذ/ لقد قلتَ: إن رضا الصديق لا يتيسّر إلا بالمال/ وهذا أيضًا خلاف المعرفة والرأي الصحيح/ فألف كنز ثمين يعادل حبّة من الفن/ والمنّة بعد ذلك على المعطي، والحيف عَلَيّ».

٤- تربية الذوق الجمالي

حين يخمد الشعور يرسف الإنسان في أغلال الطين، فلا يستطيع أن ينطلق في رحاب الكون الفسيح، ولا يستطيع أن يرى الجمال، لأن الجمال قيمة إنسانية لا يراها إلاّ المتحررون.

وسعدي من المتحررين ومن دعاة التحرر، بعبارة أخرى إنه عاشق ومن الدعاة إلى العشق، فالعشق هو الهيام بالجمال، والعاشق بهذا المعنى هو الذي يغلي صدره بالمشاعر النبيلة التي تدفعه إلى حبّ الجمال والكمال، من هنا فالعاشق لا يستقرّ ولا يخنع ولا يستسلم للظروف، بل يتحرك رغم كل الصعاب على طريق الجمال.

وعلى العكس من العاشق الإنسان المتبلّد الإحساس، الضعيف الهمّة، الذي لا يهتزّ أمام السحر ولا يطرب أمام الجمال.

وتربية الذوق الجمالي هدف كل الأنبياء والمصلحين، لأنه يدفع الإنسان للحركة نحو الجمال المطلق ويجعل الكائن البشري مُعرضًا عن القبائح والسيئات.

نحن اليوم بأمس الحاجة لتربية الذوق الجمالي لشبابنا لكي يطلبوا الجمال في كل مجالات حياتهم، ويعرضوا عن القبيح في المظهر والسلوك. والذوق الجمالي يبعد الشباب عن الوقوع في مستنقع الرذيلة ، لأن الشاب ـ إن تحلّى بالذوق الجمالي ـ يستطيع أن يفهم قبح الرذائل، ويفهم الفرق بين الجمال الحقيقي والجمال السرابي الخدّاع.

وهي مسألة نحتاج إلى الوقوف عندها طويلاً، لكنّا نكتفي بهذه الإشارة ونعود إلى سعدي الشيرازي الذي سعى فيما سعى إلى أن يستثير الذوق الجمالي الفطري في مجتمعه، الذي تكالبت فيه ظروف سحق هذا الذوق وإماتته، بفعل الأوضاع الاجتماعية السيئة.

هو أولاً يكرّر الدعوة إلى التأمل في مظاهر الطبيعة ومافيها من جلال وجمال وأسرار، وإلى التعمّق بما وراء الظواهر من علاقات تربط كل الكون بهدف تكاملي واحد. يقول:

بذكرش هرچه بينى در خروش است
ولى داند درين معنى كه گوش است
نه بلبل بر گلش تسبيح خوانيست
كه هر خارى بتسبيحش زبانيست

أي: «كل ماتراه يموج بذكره/ لا يفهم ذلك إلا القلب السميع/ ليس البلبل فحسب يسبّح على وردته/ بل كل شوكةٍ لسانٌ ينطق بتسبيحه».

والقلب الذي يستطيع أن يتفهّم حقائق الأشياء هو القلب الذي يخفق بالعشق لا القلب المتبلّد الجامد. كلّ مظاهر الطبيعة تدعو الإنسان إلى أن ينفتح قلبه وينصقل ذوقه، بل لقد عُرِف عند العرب عن الجَمَل بأنه يطرب للصوت الجميل، فما بال الإنسان لا يهزّه الجمال؟!

يقول سعدي:

دانى چه گفت مرا آن بلبل سحري؟
تو خود چه آدمى كز عشق بى خبرى
اشتر بشعر عرب در حالتست وطرب
گر ذوق نيست ترا كژ طبع جانورى

أي: «أتدري ماذا قال لي البلبل في السحر؟ / أي إنسان أنت يا مَن لا معرفة لك

بالعشق؟!/ الجمل في الشعر العربي له ذوق وطرب/ وإذا لم يكن لك ذوق فأنت حيوان معوجّ الطبع[١٢]».

ثم يردف سعدي هذين البيتين بيت عربي فيقول:

وعند هبوب الناشرات على الحمى
تميل غصون البان لا الحجر الصلد

يضع سعدي مواصفات للعاشقين منها أنهم لا يملّون الطلب والبحث للوصول إلى الجمال، يقول:

چو يعقوبم ار ديده گردد سپيد
نبردم ز ديدار يوسف اميد
طلبكار بايد صبور وحمول
كه نشنيده ام كيمياگر ملول
چه زرها بخاك سيه در كند
كه باشد كه روزى مسى زر كند[١٣]

أي: «فلئن ابيضّت عيناي، كما ابيضّت عينا يعقوب / فلن أقطع الأمل، من رؤية يوسف/ ولابدّ للطالب أن يكون صبورًا قادرًا على التحمّل / إذ لم يُسمع أن كيماويًا (ساعيًا للحصول على الذهب من معادن أخرى) أصبح ملولاً / فما أكثر ما ينفقه من مال وذهب / لعلّه يومًا يستطيع أن يحوّل النحاس إلى ذهب».

ومن صفات العاشقين أنهم يشعرون ـ رغم ثقل أعباء العشق ـ بالبهجة والسرور والحبور.

وسعدي مبتهج دائمًا، لأنه يعيش في عالم مبتهج بخالقه، وسعدي عاشق لكل العالم، لأن كل العالم من فيض المحبوب. يقول:

بجهان خرّم از آنم كه جهان خرّم از اوست
عاشقم بر همه عالم كه همه عالم از اوست

أي: «أنا مبتهج بالكون لأن الكون مبتهج به/ أنا عاشق لكل العالم لأن جميع العالم منه».

وما أجمل هذا الارتباط بالكون! إنه ارتباط يشرح الصدر، ويبارك العمر ويزكّيه ويرفعه، ويجعل العلاقة بين الإنسان والكون علاقة العاشق بالمعشوق.

ويفصل سعدي بين حديث العشق وحديث العقل، فالعشق حديث تضحية وفداء وتحمّل ومعاناة وإيثار، وحديث العقل حديث مصلحة ومنفعة واستئثار وطلب السلامة. يقول سعدي:

دردیست درد عشق که هیچیش طبیب نیست
گر دردمند عشق بنالد غریب نیست
دانند عاقلان که مجانین عشق را
پرواي قول ناصح و پند ادیب نیست

أي: «ما أشدّ ألم العشق الذي ليس له طبيب / وإذا ناح المصاب بالعشق فليس ذلك بغريب / يعلم العقّال أن مجانين العشق / لايرعوون لقول ناصح وموعظة أديب».

وهذا لا يعني أن سعدي يدعو إلى ترك العقل، بل يرى أن عالم العشق غير عالم العقل، عالم العشق يتجاوز الذات، وعالم العقل يكرّس الذات. ولا نبالغ إذا قلنا أن كل الذين بذلوا جهودهم من أجل خدمة البشرية في أي مجال من المجالات هم عاشقون. والعرفاء يرون أن العشق هي النار التي تحرّك البشرية، وهو طاقتها المحركة، ويعبّرون عن العقل بأنه الدخان المصاحب للنار. يقول العطار في منطق الطير:

عشق جانان آتش است وعقل دود
عشق چون آمد گریزد عقل زود

أي: «عشق الحبيب نار والعقل دخان / وحين يحلّ العشق سرعان ما يهرب العقل».

ويقول سعدي:

حدیث عقل در ایام پادشاهی عشق
چنان شده است که فرمان حاکم معزول

أي: «حديث العقل في أيام سلطنة العقل / أصبح وكأنه فرمان الحاكم المعزول».

منطق العاشقين غير منطق الأنانيين. والعرفاء يرون أن العاشقين هم أصحاب الرأي الصائب والنظر الثاقب. يقول سعدي:

هر كسى رانتوان گفت كه صاحب نظر است

عشق بازى دگر و نفس پرستى دگر است

أي: «لا يمكن أن يقال عن أي شخص بأنه صاحب نظر/ فالسير على طريق العشق شيء وعبادة النفس شيء آخر».

سعدي يضع العاشق مقابل الأناني وعابد الذات، وبذلك يدعو إلى أن يكون الإنسان عاشقًا ينشد الجمال بعيدًا عن الذاتية والأنانية، مندفعًا دائمًا ليقدم الخير والعطاء للبشرية جمعاء.

يقظة الشعور عند حافظ

مشروع إيقاظ الشعور عند حافظ يتلخّص في إثارة أشواق الجمال لدى الإنسان وهذه الأشواق تدفعه طبعًا إلى التحرر من الذاتية والاتجاه نحو الكمال.

ونقف عند بعض معالم هذا المشروع من خلال ديوانه الذي يتضمن ما يسمى بالفارسية بالغزليات.

أول غزلياته يبدأها بشطر بيت عربي يدعو فيه الساقي أن يناوله كأسًا كي يخفّف عنه أثقال هموم العشق الذي بدا في أوله سهلاً، لكنّ ثقل أعبائه بدت على مرّ الأيام: (والخمر على لسان العاشقين تعني وسيلة خروج الإنسان من ذاتيته).

ألا يا أيها الساقي أدر كأسًا وناولها

كه عشق آسان نمود اول ولى افتاد مشكلها

أي: «فالعشق بدا في أوله سهلاً ثم وقعت المشاكل».

وفي بيت آخر من هذه الغزلية يتحدث عن نفسه التي لا تدعه يستقرّ لأن شوط العمر قصير:

مرا در منزل جانان چه امن عيش چون هر دَم
جَرَس فرياد می دارد كه بربنديد محملها

أي : «أيُّ أمن عيش لي في منزل الحبيب،إذ في كل لحظة/ يدق الجرس أن ارزموا محملكم». (أي: أن ارحلوا).

وفي بيت آخر من هذه الغزلية يشير إلى مايحيط به من أهوال تعبّر عن الهموم الكبيرة التي يحملها، ويرى أن الذين يخلدون إلى الراحة ودعة العيش لا يفهمون ما يثقل صدور العاشقين:

شبِ تاريك وبيم موج و گردابی چنين هايل
كجا دانند حال ما سبكباران ساحلها

أي: «ليل مظلمٌ وموجٌ مخيف، ولُجّة هائلة/ من أين لسكان السواحل أن يعرفوا حالنا».

ثم يدعونفسه لأن يسير على طريق العشق إذا أراد أن يكون حاضرًا، أي إذا أراد أن يكون ذا مكانة في ساحة الإنسانية المتكاملة:

حضوری گر همی خواهی ازاوغايب مشوحافظ
متی ما تلق من تهوى دع الدنيا وأهلها

أي: «إذا أردت حضورًا مستمرًا فلا تَغِب عنه يا حافظ / متى ماتلق من تهوى دعِ الدنيا وأهلها».

ويلاحظ أن البيت الأول الذي يشير فيه إلى سهولة العشق في بداية مراحله، وظهور مشاكله وثقل أعبائه في مراحل تالية، له ما يشابهه في الغزل العربي، يقول الشاعر:

تولّع بالعشق حتى عشق فلما استقلّ به لم يُطق
رأى لُجّة ظنّها موجةً فلمّا تكنّن منها غرق

نارالعشق

النار والنور من رموز الطاقة المحركة والضياء في الأدب. وعن ارتباط النار بالعشق

يقول حافظ:

در ازل پـرتو حسنت زتجلّـى دم زد

عشـق پيـدا شد وآتش به همه عالم زد

أي: «نور جمالك تجلّـــى منـــذ الأزل/ فظهر العشق وأضرم في العالم نارًا».

فالجمال هو الذي خلق العشق وأضرم النار في العالم. والبرق الذي سطع مـن مـنزل ليلى أضرم النار في بيدر مجنون:

برقى از منزل ليلى بدرخشيد سحر

وه كه با خَرمَن مجنون دل افگار چه كرد

أي: «لقد سطع من منزل ليلى في السحر برق/ آه، ماذا فَعَل ببيدر المجنون المسكين».

أما نار الوادي المقدس فلم تبعث البهجة في قلب حافظ فحسب، بل إن موسـى (ع) جاء إلى ذلك المكان على أمل الحصول على قبس:

ز آتش وادى ايمن نه منم خُرّم وبس

موسى آنجا به اميد قبسى مى آيـــد

أي: «لستُ وحدي جذلانًا من الوادي الأيمن/ موسى (أيضًا) جاء على أمـل قـبس إلى ذلك الوادي».

العشق ولوم اللائمين

الحديث عن اللائمين يردده جميع العشّاق، ويكررون القول بأنهم لا يبـالون بهـؤلاء لأنهم لا يعرفون معنى العشق ولم يذوقوه ويقصدون بذلك أنّ العاشق الذي يـسير علـى طريق نكران الذات سوف يواجه لوم الذاتيين وسخرية الأنـانيين، وعليـه أن لا يبـالي بهؤلاء الغافلين: والحديث عن اللائمين نراه عند حافظ إذ يقول:

به رغم مُدَّعيانى كه منع عشق كننـد

جمال چهره ى تو حُجّت موجّه ماست

أي: «رغم الأدعياء الذين يمنعون العشق/ جمالك حجتنا الوجيهة».

فالجمال حجة كافية للعشق رغم لوم اللائمين.

ويرى أن الزاهد المتمسك بالمظاهر لا يفهم حال العشاق فله الحق فيما يقول:

زاهد ظاهر پرست از حال ما آگاه نيست

در حق ماهرچه گويد جاى هيچ اكراه نيست

أي: «الـــزاهد المتظـاهر لا يعلم بحالنـا/ فكلّ ما يقوله بحقّنا لا يسيء إلينـا».

وللعشاق ألف شغل في كل خصلة من شَعرِ الحبيب فأين العشاق من اللائمين الفارغين؟!

هر سر موى مرا با تو هزاران كار است

مـا كجاييم وملامتگر بيكار كجـــاست

أي:«لنـا ألف شغل في كلّ خصلة من شعرك / أيـن نحن مـن هذا اللائم العاطل؟!».

الخروج من الذاتية

وللتفريق بين العاشق الحقيقي وبين طالب الشهوة يرى حافظ أن العاشق لابد أولاً أن يتحرر من الذاتية، وإذا كان حبيس ذاته فهو لا يفهم أبدًا العشق وأسراره:

بـــا مدّعى مگوييد اسرار عشق ومستى

تا بـــى خبر بميرد در درد وخود پرستى

أي: «لاتتحـــدثوا مع المدعي عن أسرار العشق / كي يموت جاهلاً في الألم وعبادة الـــذات».

ويفدي حافظ نفسه لمن بلغت همته أن يتحرر من كل مالَهُ طابع انشداد أرضي:

غـــلام همّت آنم كه زير چرخ كبود

زهـــر چـه رنگ تعلّق پذيرد آزاد است

أي: «أنا غلام همّة ذاك الذي تحت السماء الزرقاء / قد تحرر من كلّ ماله لون التعلق بالأرض».

وطريق منزل ليلى محفوف بالأخطار والشرط الأول للسير على هذا الطريق أن تكون مجنونًا، أي عاشقًا حقيقيًا متحررًا من ذاته:

در ره منزل ليلى كه خطرهاست در آن

شرط اوّل قدم آن است كه مجنون باشى

أي: «في طريق منزل ليلى المحفوف بالأخطار/ الشرط الأول لوضع قدمك في الطريق أن تكون مجنونًا».

وأي معبود تتجه إليه خارج ذاتك هو أفضل من عبادة ذاتك:

گر خود بُتى ببينى مشغول كار او شو

هر قبله يى كه بينى بهتر ز خود پرستى

أي: «إذا رأيت صنمًا فاشتغل به/ كل قبلة تتجه إليها أفضل من عبادة الذات».

والشمعة التي تحترق لتضيء الطريق للآخرين هي التي تعرف أسرار العشق، لا عبّاد الأهواء والشهوات:

خواهى كه روشنت شود اسرار درد عشق

از شمع پُرس قصه زباد هوا مپرس

أي: «إذا أردت أن تتضح لك أسرار العشق /فاسأل عن القصة من الشمعة لامن تيارالهوى».

العشق لا يفهمه إلا الخواص

والخواص ليسوا هم الذين كدّسوا المعلومات، بل هم الذين طهّروا قلوبهم من كل ما سوى العشق، وهؤلاء هم الذين يعرفون أسرار العشق، والمدّعون لا يستطيعون أن يقفوا على أسراره، بل إذا أرادوا التفرج على ساحة الأسرار تصدهم يد الغيب عن ذلك:

مدّعی خواست که آید بـــه تمـاشاگه راز

دســـت غیب آمـــد و برسینه نامحرم زد

أي: «أراد المدّعـــي أن يأتي ليتفرج على الأسرار/ فجـاءت يدُ الغيب وضربت على صدرالأجنبي».

والعشق ليس من مقولات علم الفقه، ولذلك لا يفهم مسائل العشق إلاّ العاشقون:

حـلاج برسر دار این نکته خوش ســرآید

از شافعـی نپرسید امثال ایـــن مسایـل

أي: «الحلاج على المشنقة، قال بشكل رائع هذه النكتة/ لا تـسألوا الـشافعي عـن أمثال هذه المسائـل».

وأصحاب القلوب هم الذين يأنسون بالحبيب، وغيرهم لا يعرف هـذا الأنـس بـل ينكره.

هر که شد مَحْرَم دل در حَـــرَم یار بمانـد

و آن که ایـن کـــار ندانست در انکار بماند

أي: «من أصبح مَحرَمًا للقلب بقي في حريم الحبيب/ ومَن لـم يعـرف كيـف يكـون محرمًا بقي في الإنكار».

وحديث العشق حديث النفس والقلب لا حديث المدرسة والدراسة:

مباحثی که در آن حلقه جنون می رفت

ورای مـدرسه وقـــال وقیل مسأله بود

أي: «المباحث التي كانت تدور في حلقة الجنون تلك /هـــي ما وراء المدرسة وما وراء القيل والقال».

العشق فطرة وحياة

الناس منجذبون فطريًا لعشق الجمال، سواء منهم مـن نهـج طريـق العقـل أو نهـج

طريق العرفان. وكلّ أماكن العبادة يعبّر فيها المؤمنون عن انشدادهم بالعشق.

همه كس طالب يارند چه هشيار وچه مست

همه جا خانه عشق است چه مسجد چه كنشت

أي: «كل الناس يطلبون المعشوق، الصاحي منهم والثمل/ وكل مكان بيت للعشق مسجدًا كان أم كنيسًا».

والعشق موهبة وصلت الإنسان من ميراث الفطرة:

مى خور كه عاشقى نه به كسب است واختيار

ايـن موهبـت رسيـــد ز ميراث فطرتم

أي: «عبَّ المدام، (والمدام، كما ذكرنا، ترمز إلى نكران الذات) فالعشق ليس بالكسب والاختيار / هذه موهبة وصلتني من ميراث فطرتي».

والعاشق العارف لم يتعلم سوى عشق جمال الحبيب:

نيست بر لوح دلم جز الف قامت دوست

چه كنم حـــرف دگـــر ياد نداد استادم

أي: «ليس على لوح قلبي سوى ألف قامة الحبيب / ماذا أفعل إذ لم يعلمني أستاذي غير ذلك».

والعشق هو الحياة وليس سواه إلا الموت، ويُفتي حافظ بأداء صلاة الميت على من خلا قلبه من العشق:

هرآن كسى كه درين حلقه نيست زنده به عشق

بـر او نمرده به فتواىِ من نماز كنيـد

أي: «كل من لم يكن في هذه الحلقة حيًا بالعشق/ بفتواي أقيموا عليه صلاة الميت وهو حيّ».

البلبل والوردة

كل الكون يتحرك بالعشق، والعلاقات بين الكائنات هي علاقة عاشق ومعشوق،

وإلى هذه الحقيقة يرمز حافظ في حديثه عن علاقة البلبل بالزهرة. فالبلبل يُنشد متغزلاً حين يبهره جمال الزهرة:

بُلبل ازفيض گـُل آموخت سُخن ورنه نبود

اين همه قـــول وغزل تعبيه در منقارش

أي: «البلبل تعلم الكلام من فيض جمال الزهـــرة وإلا /ما كـان كـلّ هـذا الكـلام والغزل معبّأ في منقاره».

والبلبل في تغريدة يُنشد ترانيم روحيّـة يـدعو فيهـا إلى الإمعـان في جمـال الزهـرة وماتشعّه من نور هو ذاته ما رآه موسى (ع) من نار في طور سيناء، لتقرأ في هذا الجمال درس التوحيد:

بلبل زشاخ سرو به گلبانك پهلـــوى

مى خواند دوش درس مقامات معنـوى

يعنى بيا كـــه آتش موســـى نمود گل

تـــا از درخت نكتـــه توحيد بشنوى

أي: «البلبل منغصن شجرة السرو باللحن الپهلوي/ كان ينـشدأمـس دروسًـا في المنازل المعنوية/ تعال فقد أبرز الورد نـــار موســـى لتـسمع مـن الـشجرة ترانيـــــم التوحيـد».

فالجمال يبعث في النفس ذلك العشق الذي يكسر صنم الذات ويجعل الإنسان يطلب الكمال المطلق وهو الله تعالى.

هذه هي الطبيعة الأبدية للوردة أن تشعّ بحسنها، وهذه هي طبيعة البلبل أن يكون قرين العشق:

گل يار حُسن گشته وبلبل قريـــن عشق

أيـــن را تغيّرى نـــه وآن را تبدّلـى

أي: «الورد أصبح قرين الحسن والبلبل قرين العشق/لا في هذا تغيّر ولا فـي ذلـك تبدّل».

يقظة الشعور عند الشابي

بنفس لغة سعدي وحافظ تحدّث أبو القاسم الشابي، ولكن بخطاب القرن العشرين، ونقف عند بعض محطات إيقاظ الشعور عند شاعر العشق والنهضة التونسي:

تونس والشابي

تونس مؤهلة بما فيها من جمال طبيعي خلاّب أن توقظ الحسّ الجمالي في الإنسان، لكنّ المهمّ أنّ الشابي عاش فترة النهضة في النصف الأول من القرن العشرين (١٩٠٩-١٩٣٤)، وهي الفترة التي أعقبت النهضة التي فجّرها السيد جمال الدين الأسدآبادي المعروف بالأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧) في العالم الإسلامي بشكل عام وفي مصر بصورة خاصة.

لقد وصلت موجة الأفغاني إلى تونس على يد محمدعبده (١٨٤٩-١٩٠٥)، وكان والد الشابي هو «المثقف التونسي الوحيد الذي تتلمذ على الامام محمد عبده مباشرة في الجامعة الأزهرية بالقاهرة، حيث هاجر خصيصًا لهذه الغاية»[١٤].

ومحمد عبده زار تونس مرتين كانت الثانية عام ١٩٠٣ «وكانت له ولجمعية (العروة الوثقى) علاقات قوية مع رجال الإصلاح والتنوير التونسيين.

وقد تتلمذ الشابي على عدد منهم، وأبرزهم العلامة الإمام محمد الطاهر بن عاشور»[١٥].

كل هذه كانت حوافز لتوجّه شاعرنا العاشق إلى نهضة قائمة على أساس الإسلام، وزاد من لوعة العشق في نفسه أنه حساس ورقيق النفس:

والشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي ورقّة نفسي

وهذا الشقاء الذي يذكره الشابي ليس هو شقاء الأنانيين الذين يشقون في سبيل الأغراض المادية الصغيرة، وإنّما هو شقاء الإنسان الذي يشعر بثقل الأمانة الكبرى بعد أن أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها.

لقد انتمى الشابي إلى مدرسة العشق بامتياز في تغنيه بالحب والجمال وفي انتمائه إلى اليقظة الإسلامية عملاً وأدبًا، بل إن الشابي على الرغم من الشوط القصير لحياتـه (٢٦ سنة) يعتبر من رواد النهضة الإسلامية المعاصرة.

يعبّر شاعرنا عن تفاؤله بمستقبل الصحوة الإسلامية في زمانه وتعاطفه معها وابتهاجه بمشاريعها فيقول:

«وفي تونس اليوم نشاهد من آثار هذه اليقظة الإسـلامية المباركـة غراسًـا زاكيًـا، نتعشّم (نطمح) فيه خيرًا كثيرًا، ونرجو أن يؤتي أكُله بعد حين.. وأدعو الأمة التونـسية الناهضة لتلبية هذا الصوت الإلهي الـذي يتـردّد في قلـوب المـسلمين في جميـع نـواحي العالم»[١٦] .

العشق والنهضة على لسان الشابي

يفرّق الشابي بين ما مصدره الشعور وما مصدره الصنعة، وهذا يصدق في الشاعر:

«تسمع إلى هذا الشاعر فإذا أنت أمام روح إلهي نبيل يسمو بنفسك إلى آفاق الحقّ والفنّ والجمال، ويجعل منك كتلة من شعور قدسي مشبوب. وتـسمع إلى آخـر فتـرى أنك تسمع إلى حديث ساذج بسيط لا يميزه عن أحاديث الناس العادية إلاّ رنـة الـنغم وتواتر القوافي وجمال التعبير، وتسمع إلى غيره فتخال أنك تُجلَـد بالـسياط أو تـساق إلى الموت على وجهك»[١٧] .

يلاحظ أن الشاعر الأول الذي يذكره الشابي هو العاشق الحقيقي الـذي يـسمو إلى آفاق الكون الفسيح، ويدعو مخاطبيـه إلى هـذا الـسمو بمقـدار قـدرتهم علـى التحـرر والدخول في التجربة الشعورية للشاعر، أما الثاني فقد استشعر شيئًا من الجمـال، لكنـه لامَسَ ظاهره ولم يتوغّل في أعماقه، أما الثالث فهو الذي يصدر شـعره عـن روح ميتـة مغروسة في أو حال الذاتية، لم يستشعر جمالاً، ولم تدخل قلبَه حرقةٌ أو لهب.

ومثل الشاعر الموسيقار الموهوب الذي «يثير وجدانك ويهزّ عواطف قلبـك ويُـذكي

خيالك إلى أقصى مداه حتى تكاد تستحيل شعلة متوهجة من خيال وذكريات وأحلام» ولكن تجد آخر لا تشعر من موسيقاه سوى حلاوة في الصوت وجمال في المقاطع، ثم هناك من تصغي اليه «فيكاد التثاؤب ينيمك والضجر يقضى عليك».

وبمثل هذا التقسيم ينظر الشابي إلى الشعوب فيرى أن شعبًا من «شعوب الأرض، يجدّ ويكدح وينتج ويخصب أينع الثمار وأحلاها، فإذا له حياته الأدبية الناضجة وحياته العلمية الراقية وحياته العادية المهذبة ومشاعره الطامحة إلى ماهو أجلّ من ذلك وأسمى، إلى المثل الأعلى المحجب في ظلام المجهول.

وهذا شعب آخر، منصرف إلى التبطل، والفراغ، مُخلد إلى الكسل والخمول، لا يعمل، ولا ينتج، ولا يجود على الإنسانية بخير، ليس له فن ولا علم، ولا أدب ولا طموح، بل ولا حياة... أيضًا، إلا كما تحيا ماشية الحقل وآبدة الجبل...».

بعد هذا التفريق بين شاعر وشاعر، وموسيقي وموسيقي، وشعب وشعب، يرى الشابي أن الفرق في كل ذلك يعود إلى «يقظة الإحساس».

وهذا هو الذي يميّز كبار الشعراء والفنانين والشعوب عن غيرها بما في ذلك الأمة الإسلامية التي «كانت بالأمس رائد العالم ورسول المدنية والنور، حين كانت روحها مستيقظة ناهضة، **وإحساسها مضطرمًا مشبوبًا. ثم أمست في آخر القافلة الإنسانية نائمة تلوك أحلام الماضي، تبلّد إحساسها وفقدت شعورها بنفسها وبالحياة. ثم هاهي اليوم تحاول النهوض واليقظة ثانية لأن روحها قد أخذت تستيقظ من جديد**»[١٨].

وفي عبارة أكثر صراحة ووضوحًا يذكر الشابي الارتباط بين ازدهار الآداب والفنون التي هي التعبير الفني للعاشقين وبين الثورة التي هي التعبير العملي للعاشقين.

يقول: «**ثم إن هناك ظاهرة قد تكون لأول وهلة غريبة ومثارًا للحيرة والتساؤل وهي أن الآداب والفنون، كثيرًا ما تزدهر في عصور الثورات والانقلابات وبين الجماجم المنثورة والدماء الجارية. بل وربما كانت أحيانًا أبهى منظرًا وأعبق شذى وأنطق بمعاني الحياة من آداب الراحة والأمن والسلام وفنونها. أما أنا فلا أراها غريبة ولا مدهشة،**

بل أراها نتيجة منطقية ومعقولة لنفسية الأمة الجائشة، لأن الثورات لا تحدث إلا والنفوس أكثر إحساسًا بالحياة وملل من الحاضر، وشوق إلى المستقبل، وطموح إلى المجهول... وتلك هي يقظة الإحساس بمعناها الشامل العميق. وإن شعبًا يكون مستيقظ المشاعر متسع جوانب الحياة، لجدير بأن يستخرج خير ما في الطبيعة من فن وحق، وإن فنًا يكون مصدره تلك اليقظة الروحية العميقة التي سميناها «يقظة الإحساس» لهو الفن الحي في صميمه، الفن الذي لا ينصرف إلى القشور ولا يقنع بما دون اللباب».

ويلاحظ في النص تعابير: الثورة، والحياة، والنفسية، الجائشة، والملل من الحاضر، والطموح إلى المجهول، ويقظة الاحساس،والعطش الروحي، وروح الحياة المنتجة، ونيران النبوغ. وكل هذه التعابير معالم للمنظومة الفكرية والحضارية للشابي التي ترى الثورة أو النهضة والعشق ينطلقان من نبع واحد هو تحرر الشعور من القيود التي تكبّله والقشور التي تغطّي على رؤيته الواقعية.

وقفات مع الشاعر العاشق

قصيدة «أيها الحبّ»[١٩]

يخاطب الشاعر الحبّ على أنه: سر البلاء والهموم والروعة والعناء والنحول والدموع والعذاب والسقام واللوعة والشقاء:

أيها الحبّ! أنت سرّ بلائي وهمومي، وروعتي، وعنائي
ونحولي، وأدمعي، وعذابي وسقامي، ولوعتي، وشقائي

وهذا هو الخطاب العرفاني عن الحبّ، باعتباره عامل خروج الإنسان من همومه الصغيرة الذاتية إلى الهموم الكبيرة التي تنتج عن يقظة الشعور في هذا الكون.

والشاعر حين يتحدث عن آلام الحبّ وهمومه يعي قيمة الحبّ في وجود الانسان فهو: سرّ الوجود، والحياة، والعزّة، والإباء، والشعاع المضيء لظلمات الدهر، والأليف وقرّة العين، والرجاء:

أيها الحبّ! أنت سرّ وجودي وحياتي، وعزّتي، وإبائـــي
وشعاعي مابين ديجور دهري وأليفـي، وقرّتي، ورجائـــي

ويعود الشاعر ليخاطب الحبَّ بأنه وراء كل ما يشعره من سقام وهناء ويتساءل أهو «لهيبٌ» يثور في روضة النفس (وارتباط اللهيب بروضة النفس هو ارتباط شعلة الشعور في بستان الجمال)، أم هو نور السماء، ونور السماء يعني هنا المعنى الغيبي لتأثير الجمال في النفس:

يا سلافَ الفؤاد! يا سُم نفسي في حياتي يا شدّتي! يا رخائـــي!
ألهيبٌ يثور في روضة النفـــ س، فيطغى، أم أنت نور السماء؟

ويبدو أن مشاعر الحبّ تثور في نفس الشاعر فتدفع به نحو غايات لا متناهية. وبلفتة رائعة يُقسمُ على الحبّ بالجمال، أي إن الحبّ يقدّس الجمال، ويطلب منه أن يهوّن عليه أثقال مشاعره:

أيها الحبّ قد جرعت بك الحز نَ كؤوسًا، وما اقتنصت ابتغائي
فبحقّ الجمال، يا أيهـــا الحـ بُّ حنانيك بي! وهـــوّن بلائي

ثم يختتم أنشودته بالإشارة إلى حيرته في مصدر هذا الحبّ أهو نزعة الطين المظلمة أم روح ربّ العالمين المضيئة المشرقة، فالأولى نزعة غريزية هابطة، والثانية ترفع الإنسان وتسمو به وتبارك له العمر وتزكّيه:

ليت شعري! يا أيها الحبّ، قل لي: من ظلام خُقلتَ أم من ضياء

قصيدة : الجمال المنشود:[٢٠]

في هذه القصيدة يحوم الشاعر حول الجمال ليتعرّف كنهه، ويتعرّف سرّ انجذاب الإنسان نحو الجمال:

يا عذارى الجمال، والحبّ، والأحلام بـــل يـــا بهـــاءَ هـــذا الوجـــود
قـــد رأينـــا الـــشعور منـــسدلات كلّلـــت حـــسنَها صـــباحُ الـــورود
ورأينـــا الجفـــون تبـــسمُ.. أو تحلُـــمُ بـــــالنور بـــــالهوى، بالنـــــشيد

ورأينا الخـدودَ، ضرّجَهـا السحـرُ فآهًا مـن سحر تلـك الخـدود

ويتابع ذكر مظاهر الجمال في هذه العذارى التي هي بأجمعها «فتنة، توقظ الغـرام وتُذكيه»، فماذا خلف هذه المظاهر التي توقظ الشعور بالعشق في نفس الإنسان:

ماالذي خلفَ سحرها الحالم السكران في ذلـك القـرار البعيـد؟
أنفـوسٌ جميلـةٌ، كطيـور الغـاب تـشدو بـساحر التغريـد
طـاهرات، كأنهـا أرَجُ الأزهـار في مولـد الربيـع الجديـد؟
وقلوبٌ مضيـئة، كنجـوم الليـل ضـوّاعةٌ، كغـضّ الـورود؟

هل فتنة الجمال في المرأة هي جزء من افتتان النفوس الجميلـة بالجمـال في الكـون.. في شدو الطيور، وأرج الأزهار؟ وهل هي جزء من فتنة القلوب المضيئة مثـل نجـوم الليـل وغضّ الورود؟

أم ظـلام كأنـه قطـع الليـل وهـولٌ يُـشيبُ قلـبَ الوليـد
وخضـمّ يـموجُ بالإثـم والنكـر والشـرّ والضـلال المـديد؟

هذا التساؤل وقبله يمكن أن تعبّر عنه بأسلوب الفهم القرآني للإنسان كما ذكرنـا على النحو التالي: هل فتنة الجمال بالمرأة تنطلق مـن نفخـة روح رب العـالمين أم مـن نزعة الطين؟ وقد ذكرنا من قبل أن العشق الحقيقي هو النزوع إلى الجمال، ولا يمكن أن يكون الإنسان عاشقًا إلاّ إذا تحرر من أغلال الطين.

ويخاطب المرأة متمنيًا لها أن لا تدخل عالَم ظلمات الروح التي تحوّل العشق الحقيقي إلى «ليل مريع»:

صـانكنّ الإلـه مـن ظلمـة الـروح ومـن ضـلّة الـضمير المريـد
إن ليـلَ النفـوس ليـلٌ مريـعٌ سـرمديّ الأسـى شـنيعُ الخلـود
يـرزحُ القلبُ فيـه بالألـم المرّ ويشقـى بعيشـه المنكـود

ويعتصر الشابي تجربته في فهم الجمال ببيت يختتم به قصيدته يقول:

غيـر بـاق فـي الكون إلاّ جمالُ الـروح غضًّا علـى الزمان الأبيد

وقفات مع الشاعر الثائر

ثورة الشاعر تعني كما ذكرنا اهتمامه باستنهاض شعبه وإنقاذه من حالة الركود والخمود، لأنه يؤمن بأن نهضة الأمة تبدأ بنهضة الشعور.

ديوان الشابي مفعم بروح الاستنهاض في قصائد عديدة، من تلك:

قصيدة النبي المجهول:[٢١]

في هذه القصيدة يرى أن مسؤولية الشاعر والمفكّر أن يخلّص شعبه من الجهل والغباء والسكون والارتخاء.

ويبدأها بأسلوب عنيف إذ يقول:

أيها الشعب! ليتني كنت حطّا ... بًا فأهوي على الجذوع بفأسي
ليتني كنت كالسيول إذا سا ... لت تهدّ القبور: رمسًا برمس
ليتني كنت كالرياح فأطوي ... كلّ ما يخفق الزهور بنحس

ويستمر في تمنّيه أن تكون له قوّة التغيير الحاسم السريع ثم يذكر سبب هذه الثورة:

أنتَ روحٌ غبيّة تكره النور ... وتقضي الدهورَ في ليل مَلس

ليُسمعَ الطيور صوته، فإنها تفهم مايقول:

سوفَ أتلو على الطيور أناشيـ ... ـدي، وأفضي لها بأشواق نفسي
فهي تدري معنى الحياة، وتدري ... أنّ مجدَ النفوس يقظةُ حسّ

وليس هذا بيأس حقيقي، بل تظاهرٌ باليأس يبتغي منه الاستنهاض وزيادة التأثير.

إرادة الحياة[٢٢]

وهي أشهر قصائده الاستنهاضية، وأكثرها شيوعًا في العالم العربي والإسلامي. وفيها إشارات إلى سنن الكون والحياة، وأنّ قَدَرَ الإنسان هو ما تصنعه إرادته، وأن الأشواق المضطرمة في نفس الإنسان نحو الحياة هي التي تحافظ على وجوده. وشوق الحياة هو الشوق إلى الجمال والكمال والتطوير والسمّو:

إذا الشعب يومًا أراد الحياة ... فلا بُدّ أن يستجيب القدرْ

ولابـــــدّ لليـــــل أن ينجلـــــي ولا بُـــــدّ للقيـــــد أن ينكـــــسرْ
ومن لـم يعانقــه شــوق الحيـــاة تبخّرِ فـــــي جوّهـــا واندثـــرْ

سنن الكون كلها تدعو إلى أن يتجه الإنسان نحـو الغايـات البعيـدة والاّ ارتكـز في ذاتيته وأنانيته وأهدافه الصغيرة:

ودمـــدمت الـــريحُ بـــين الفجـــاج وفـــوق الجبـــال وتحـــت الـــشجر:
«إذا مـــا طمحـــتُ إلى غايـــة ركبـــتُ المـــنى ونـــسيتُ الحـــذر..
ومـن لا يحـــبّ صعـود الجبـــال يعـش أبـد؛ الدهـــر بيـــن الحُفر»

وبأسلوب آخر يبين هذه الحقيقة حين يسأل الشاعر الأرض عمّن تحبّ وتكره:

وقالـــت لي الأرضُ لمـــا ســـألت: «أيـــا أمّ هـــل تكـــرهين البـــشر؟»

وتجيبه الأرض:

«أبـــارك في النـــاس أهـــلَ الطمـــوح ومـــن يـــستلذّ ركـــوبَ الخطـــر
وألعـــنُ مـــن لا يُماشـــي الزمـــان ويقنـــع بـــالعيش عـــيش الحجَـــر
هـــو الكـــون حـــيٌّ يحـــبُّ الحيـــاةَ ويحتقـــر الميـــت مهمـــا كَبُـــرْ
فـــلا الأفـــقُ يحضُنُ ميتَ الطيـــور ولا النحـــلُ يلثـــم ميتَ الزهـــرْ»

والأرض هنا هي سنن الكون التي تحكم الحياة، وحديث الأرض هـو حـديث عـن هذه السنن، وحديث الربيع معها هو ارتباط هذه الـسنن بيقظـة الإحـساس، إذ يقـول الربيع للأرض حين أعاد لها الشباب:

وقـــال لهـــا: قـــد مُنحـــت الحيـــاة وخُلّـــدت في نـــسلك المـــدّخَر
وباركـــك النـــورُ فاســـتقبلي شـــبابَ الحيـــاة وخـــصبَ العُمُـــرْ
ومـــن تعبـــدُ النـــور أحلامُـــهُ يـــباركُـــهُ النـــورُ أنّـــى ظَـــهَر

وفي البيت الأخير إشارة إلى أن مشاعر الإنسان حين تتجه إلى السموّ في عالم النور، فتلك بركة الحياة.

ويختتم الشاعر قصيدته بالتأكيد على طموح النفوس للحياة وأنها أساس كل تغـيير

في الإنسان والمجموعة الإنسانية:

إذا طمَحَتْ للحياة النفوسُ فلا بُدَّ أن يستجيب القدر

فكرة الفنان:[٢٣]

هذه قصيدة على غاية من الأهمية في بيان فكرة الشابي عن الشعور ودوره في الحياة. فالشعور كما ذكرنا مصدر تحسّس الجمال ومصدر دفع الإنسان في مسيرته التكاملية يقول:

عشْ بالشعور، وللشعور، فإنما دنياك كونُ عواطف وشعور
شيدت على العطف العميق، وإنّها لَتَجفُّ لو شيدت على التفكير
وتظلّ جامدة الجمال، كئيبةً كالهيكل المتهدّم المهجور
وتظلّ قاسية الملامح جَهمةً كالموت، مقفرة، بغير سرور

يستمر الشاعر في بيان جفاف الحياة بدون الشعور، ويدعو إلى أن يكون الشعور قائدًا للإنسان في الحياة:

واجعل شعورَك في الطبيعة قائدًا فهو الخبير بتيهها المسحور
صَحبَ الحياةَ صغيرةً ومشى بها بين الجماجم والدم المهدور
وغدا بها فوق الشواهق باسمًا متغنيًا من أعصر ودهور

ويرى الشاعر أن دور العقل ضئيل في الحياة، ولا يستطيع أن يرتفع إلى أسرار هذا العالم رغم ما فيه من غرور:

والعقلُ رغمَ مشيبه ووقاره مازال في الأيام جدٌّ صغير
يمشي فتصرعه الرياحُ، فينثني متوجعًا كالطائر المكسور
ويظلّ يسأل نفسَه متفلسفًا متنطّسًا في خفّة وغرور
عمّا تحجّبه الكواكبُ خَلفَها من سرّ هذا العالم المستور
وهو المهشّمُ بالعواصف.. يا لَهُ من ساذج متفلسف مغرور

ويدعو إلى أن يعيشَ الإنسان «بقلب زاخر يقظ المشاعر حالم مسحور» عندئذ يدخل:

فـي نشـــوة صـــــوفيّـــة قُدسيّـــة هـي خيـرُ مـا في العالَم المنـــــظور

استنتاج

خلود الشاعر والأديب وصاحب الكلمة يتوقف على مدى قدرته أن يكون عاشقًا، وإذا أصبح عاشقًا كان استنهاضيًا يثير أشواق الجمال والكمال والحركة في النفوس.

وهذا ما رأيناه عند سعدي وحافظ وعند أبي القاسم الشابي رغم مابين الـشيرازيين والشابي من فواصل زمانية وقومية..

هذه الظاهرة تدعونا إلى أن نفهم عظمة ما عندنا من تراث إنساني يجب أن نبلـوره ونقدمه بخطاب العصر وبكل اللغات الحيّة إلى شعوب العالم، لنضيء شمعة في هذه الـدنيا التي ملأتها الأطماع المادية بالظلام والدماء والدموع.

الهوامش:

١ – *گلستان* – كليات اقبال، ص ٢٥.
٢ –*كليات سعدي*، فروغي وآشتياني، گلستان، ص ٨٠ – ٨١.
٣ – *كليات إقبال*، ص ٧٣.
٤ – المصدر نفسه، ص ٧٣ – ٧٧.
٥ – المصدر نفسه، ص ٧٧ – ٧٨.
٦ – *كليات إقبال*، ص ٨٧.
٧ – بين آونة وأخرى دع جسمي يسترحْ.
٨ – العشق والستر لا يجتمعان.
٩ – نحن لمسكنتنا ألقينا السلاح.
١٠ – إن شئت أن تعدل الآن أو تجور. *كليات إقبال*، ص ٣٧٧.
١١ – ص ١٤٢ – ١٤٣ من كتاب جنة الورد "*گلستان*".
١٢ – *گلستان*، كليات اقبال، ص ٦٩.
١٣ – *سعدي الشيرازي*، هنداوي، ص ٤٠٠.
١٤ – *مقدمة نثر الشابي*، القسم الأول، إعداد وتقديم أبو القاسم محمد كرّو، دار صادر، بيروت، ص ١٠.

١٥ – نفس المصدر، ص ١٠.
١٦ – مقال: اليقظة الاسلامية المعاصرة، المصدر السابق، ص ٨٢ – ٨٣ .
١٧ – *نـثر الشابي*/ ص ٩٣.
١٨ – *نـثر الشابي*/ ص ٩٦ .
١٩ – *ديوان أبي القاسم الشابي*/ أغاني الحياة، إعداد وتقديم ابوالقاسم محمد كرّو، دار صادر، بـيروت، ط ١، ١٩٩٩، ص ١٣ وما بعدها.
٢٠ – *الديوان*/ ١٣٤.
٢١ – *الديوان*/ ص ١٢٤ وما بعدها.
٢٢ – *الديوان*/ ص ١٩٩.
٢٣ – *الديوان*/ ١٥٨.